

التعليم في اهتمامات ثورة التحرير الجزائرية (1954-1962)

الأستاذ : سبيحي عائشة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة ولاية عين الدفلى

البريد الإلكتروني: taouanzamahfoud@yahoo.fr

ملخص المقال:

لم يكن العمل المسلح الذي شنته المجاهدون ثورة ضد الوجود الاستعماري وقواته العسكرية فحسب، بل كان عاملا شاملا ضد الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المزرية التي خلفها وتعتبر الأمية المتفشية في أوساط الجزائريين إحدى أهم سماتها، ومن ثمة شكل التعليم محورا أساسيا في الثورة التحريرية منذ انطلاقها، حيث أعطى قادتها أهمية كبيرة لهذا القطاع الحيوي باعتباره أحد العناصر الأساسية في بناء المجتمع ولما يحمله من بعد مستقبلي للأمة الجزائرية.

ويتجلى هذا الاهتمام من خلال الحرص على تعليم الأطفال والكبار وإنشاء المراكز التعليمية وانتشارها في القرى والمداشر وتحدي ظروف الحرب القاهرة ولم تغفل الثورة اللاجئين في هذا المجال حيث تم تجهيز دورا للإيواء بمدارس تعليمية خاصة. وحرصا على الرفع من مستوى جيش التحرير الوطني أقرت قيادة الثورة بتعليم الجنود ومحو الأمية في صفوفهم، ونتيجة لظروف الحرب التي حالت دون مواصلة الطلبة تعليمهم في الجزائر قامت جبهة التحرير بإرسال البعثات الطلابية لإكمال دراستهم في الخارج، وقد تابعت ظروف تدرّسهم وتكفلت بمتطلباتهم. وقد أتت هذه الجهود التعليمية بثمارها، حيث ساهمت في رفع مستوى قادة الثورة وأوجدت جيلا مثقفا لقيادة جزائر ما بعد الاستقلال.

ملخص المقال بالإنجليزية:

Education :A priority of the Algerian war of Liberation 1954-1962

The freedom fighters didn't hold arms against the colonial presence, but it was an uprising against the decline in all fields

mainly economy ,culture and social ones.since illiteracy was predominant within the natives ,the leaders of the Liberation movement decided to make of education a « Priority ».Therefore ,they set sites for educating the algerians of all ages in all the parts of the country despite the situation of war at that time. Moreover, the leaders even sent students abroad to finish their studies and come back to Algeria to serve the National Cause.

مقدمة:

لم يكتف الاستعمار الفرنسي باغتصاب الحرية والأرض والثروة التي كانت للجزائريين في وطنهم، بل أراد طمس الهوية الجزائرية لأنها تعيق مشروعه الاستعماري الصليبي باستهدافه الإسلام والعروبة، وتنفيذا لسياسته عمداً إلى القضاء على الأنشطة التعليمية والثقافية العربية الإسلامية التي كانت مزدهرة قبل 1830م، وانتهج سياسة التجهيل إزاء الشعب الجزائري لاعتقاده أن تعليم الجزائريين أو تركهم يتعلمون بوسائلهم الخاصة سيؤدي إلى يقظتهم والمطالبة بحقوقهم، الأمر الذي أدى إلى استفحال الأمية في أوساط الجزائريين، إذ تجاوزت نسبتها عشية اندلاع الثورة التحريرية التسعين في المائة. وأمام هذه الوضعية كان لزاماً على الثورة أن تعمل على جبهتين، جبهة التحرير وجبهة التعليم .

فما مدى اهتمام الثورة التحريرية بتعليم الجزائريين؟ وماهي الوسائل والآليات التي جندتها لتحقيق هذا الغرض؟

1- وضعية تعليم الجزائريين عشية اندلاع الثورة التحريرية:

لم يسلم التعليم من السياسة الفرنسية الاستعمارية التي عمدت إلى القضاء على المؤسسات التعليمية، وذلك بإغلاق المساجد والمدارس التي كانت تعلم العربية وهدم الزوايا لأنها كانت مراكز لتثقيف الشباب وغرس روح المقاومة في نفوسهم، ساعية بذلك إلى تعزيز الغزو العسكري بغزو ثقافي فكري.¹

وبعد مصادرة معاهد التربية والتعليم العربية التي كانت موجودة في الجزائر قبل الاحتلال ومحاربة التعليم العربي الحر الذي كانت تقوم به جمعية العلماء.

حصر الاستعمار التعليم في مدارسه باللغة الفرنسية وهو ما كان يسعى بالتعليم الرسمي²، فانتشرت مدارس التعليم الابتدائي في المدن والقرى وهي أساساً مدارس للتلاميذ الأوروبيين وبرنامجاً فرنسي ولكن يمكن لأبناء المسلمين أن يدخلوها إذا وجدوا فيها مكاناً، حيث كان التلاميذ المسلمون لا يمثلون سوى نسبة ضئيلة من

مجموع المتدربين.³ إضافة إلى ذلك خطورة هذا النوع من التعليم على الشخصية الوطنية للفرد الجزائري. فالهدف الذي كان يرمي اليه الاستعمار هو تكوين نخبة مزيفة من المثقفين منفصلة عن الجماهير الشعبية.⁴

كل ذلك أدى إلى سيادة الأمية بين أفراد الشعب الجزائري حيث أصبحت عشية اندلاع الثورة التحريرية تشكل 94.9% بين الرجال و 98.4% من النساء.⁵

(2)- مظاهر اهتمام ثورة التحرير الجزائرية بالتعليم:

لم تكن الثورة الجزائرية ثورة مسلحة ضد الاستعمار الاستيطاني وقواته الاحتلالية وما نتج عنه من محن ومآسي بل كانت ثورة عامة وشاملة على الموروث السيئ و التركيبة الثقيلة التي خلفها ليل الاستعمار الطويل، الذي يعد التجهيل من أبرز سماته. ومن ثمة شكل التعليم محورا أساسيا وهاما في الثورة التحريرية منذ انطلاقتها الأولى وأعطت له العناية اللازمة لأهميته في تكوين الجزائري وتحريره من عقدة الجهل.⁶

2-1- التعليم في القرى والمدن:

لقد أشرفت الثورة التحريرية منذ شهورها الأولى على التعليم، حيث أنشأت له مصلحة تتولى تسييره وتفتيشه مما جعله يزدهر، وبعد مؤتمر الصومام تم إلغاء تلك المصلحة وعوّضت بجهاز الأوقاف⁷ الذي أوكلت له مهمة تنظيم التعليم.⁸ وفي بعض المناطق كلفت الثورة التحريرية المحافظين السياسيين برعاية التعليم وذلك بتفتيش المدارس والمساجد والزوايا التي كانت معاقل للمحافظة على القرآن والسنة والتمسك بالأخلاق والقيم الإسلامية، والتي تحول أكثرها إلى معاقل للثورة والكفاح المسلح، حيث كان المحافظ السياسي يقوم بتفقدتها وتشجيع المعلمين بها ويزودها بالمجاهدين المثقفين إماما التعليم بها أو القيام بمهمة الفتوى والإصلاح⁹، وتمكن المحافظون السياسيون من تسيير مدارس القرآن الكريم بتمويلها وتعميمها في كل الجهات كالمدرسة الزيتية بالمدينة، ومدرسة الإرشاد بالبلدية¹⁰.

وإدراكا منها لأهمية هذا القطاع الحيوي، لم تدخر الثورة التحريرية جهدا في سبيله، فاهتمت بتعليم الأطفال خاصة طلبة القرآن الكريم، حيث وصل بها الأمر إلى تزويدهم بالأسلحة للدفاع عن أنفسهم ولجأت إلى تهيئهم في كثير من الأحيان إلى مراكز آمنة من غارات العدو، وأشرفت على المدارس الحرة التي نجت من الغلق والمصادرة وحولتها إلى معاقل ثورية.¹¹ وتكفلت الثورة بجميع النواحي التعليمية

للأطفال، فقامت ببناء مدارس وأقسام بسيطة، وتوزيع البدلات المدرسية على التلاميذ وتأمين المأوى والمؤونة لهم.¹²

ومما تجدر الإشارة إليه أن التعليم في عهد الثورة كان يشمل الابتدائي والمتوسط، وهناك بعض المراكز ارتقت إلى ثانويات، وكانت تتولى تقديم الدروس الدسمة للطلبة في مختلف الفنون¹³، شملت المواد اللغوية والحساب والتاريخ والجغرافيا ومبادئ الفقه الإسلامي إلى جانب تلقين الأناشيد الثورية التي تلهب عواطف الوطنية.¹⁴ ولم يقتصر التعليم الثوري على فئة الأطفال فقط، بل شمل مختلف الشرائح الاجتماعية، حيث كان جنود جيش التحرير الوطني ينظمون دروس محو الأمية في صفوف الرجال والنساء بتعليمهم اللغة العربية والمبادئ الدينية والثورية.¹⁵

2-2- تعليم اللاجئين:

تعرض آلاف الأطفال الجزائريين لآلام مدمرة جراء الحرب الاستعمارية الفرنسية، حيث تحول العديد من الأطفال إلى مشرّدين يجوبون طرقات المدن والقرى بعد أن فقدوا المأوى والملجأ، وفرت آلاف عديدة من هؤلاء الأطفال مخترقين الحدود التونسية والمغربية من وحشية الاستعمار.¹⁶ فاهتمت الثورة التحريرية بمصيرهم وحملت على عاتقها توفير المأوى لهم فأنشأت في البداية دارين بالمغرب تضمّان مائتي يتيما ودارين بالمرسى تونس تضمّان نحو مائتين وستين يتيما، وبعد ذلك تم إعداد دارين للبنات إحداهما بتونس والأخرى بطنجة المغربية، وقامت هذه المدارس بإعداد الأطفال من الناحية التعليمية باللغتين العربية والفرنسية وفقا لمنهج التعليم الإبتدائي ويشمل جميع المواد: الدين، الحساب، الجغرافيا، التاريخ، التربية البدنية، وضمت إضافة إلى ذلك التعليم المهني من: بناء، كهرباء، نجارة، دهن، خياطة وفلاحة، وكان الأطفال يمارسون تطبيق هذه المهن في المدرسة ذاتها أو في الحديقة الواسعة المحيطة بها، يشرف عليهم معلمون ومدربون أكفاء.¹⁷

وقد أوردت جريدة المجاهد الثورية¹⁸ تحقيقا ووصفا وافيا لهذه الدّور وما يجري في مدارسها المخصصة للأطفال اللاجئين، وقامت باستجواب معلمها للوقوف على ظروف التمدرس بها، وهذا ما أشار إليه أحد المعلمين بها لصحفي المجاهد قائلا: "نحن نراعي في تعليم هؤلاء الأطفال جميع الظروف غير العادية التي عاشوها، فقد تفتحت عيونهم على مناظر الحرب المدمرة والقمع الرّهيّب الذي سلّطه الاستعمار على قراهم وعائلاتهم... فعندما جنّا بهم كان الكثير منهم يرتجف وتشنّج أعصابه

حين يشاهد طائرة في السماء أو يسمع دويًا من بعيد ولم نستطع إقناعهم بأنهم هنا في أمن وسلام إلا بعد مدة طويلة وجهود كبيرة¹⁹.

3-3- تعليم جنود جيش التحرير الوطني:

سارعت الجماهير الشعبية إلى احتضان الكفاح التحرري والانضمام إلى جيش التحرير الوطني تلبية لنداء الثورة، إلا أنه من المشاكل التي طفت على السطح، انتشار الأمية في صفوف أفراد جيش التحرير الوطني وهو ما يتعارض مع الأهداف الثورية وتطلعاتها، وأمام هذا الوضع رأت الجبهة حتمية القضاء على الأمية في أوساط الجنود باللجوء إلى تعليمهم و تثقيفهم لرفع الوعي والحس الثوري لديهم. حيث أعطى العديد من قادة الولايات التاريخية²⁰ أوامر بتعليم الجنود وأوجبوا على كل جندي أن يتعلم الإسعافات الأولية وجعلوا على رأس الكتائب مرشدين يعلمون الجنود: الدين، و السياسة، والثقافة.²¹

كما أقامت الجبهة نظامًا تعليميًا للجنود داخل السجون والمعتقلات وتولى المسؤولون المناضلون عملية تعليم الجنود معتمدين على أنفسهم ووسائلهم الخاصة، وأحدثت أقسامًا للتعليم بالمعتقلات تقوم بمهمة تعليم الجنود ومحو الأمية في صفوفهم، وقد أظهر هؤلاء حرصًا خاصًا، ومواظبة لا تعرف الملل نابعة من تعطشهم للعلم، وبهذا تمكنت الجبهة من تحويل مراكز القمع إلى مدارس للتكوين ومحو الأمية ونشر العلم.²²

وقد كان لبعض الولايات التاريخية تجارب رائدة في تعليم الجنود، فمثلا في الولاية السادسة كان المجاهدون مجبرين على التعلم قراءة وكتابة، بحيث صار كل جندي يتقن القراءة و الكتابة حتى لم يبق من بين المجاهدين من يمضي بأصبعه وقد أعانهم بالخصوص على ذلك كتاب القراءة بعنوان "كون نفسك يا مجاهد"، والذي كان يملكه كل جندي في جيش التحرير، وهذا بالإضافة إلى إلزامية حفظ كل مجاهد لأناشيد الثورة و التدريب على كيفية تأديتها جماعيا.²³

3-4- التكفّل بالبعثات الطلابية في الخارج:

لما اشتد القمع الاستعماري، وخربت القرى والمدارس والزوايا، لجأت الثورة إلى إرسال البعثات الطلابية إلى الخارج لمواصلة الدراسة بعدما حالت ظروف الحرب

دون مواصلتها في أرض الوطن، وكانت عملية إرسال هذه البعثات تتم بناء على مبادرة فردية لبعض قادة الولايات²⁴.

ولعل أحسن مثال في هذا المقام جهود الولاية التاريخية الثالثة، حيث أولى القائد آيت حمودة عميروش²⁵ أهمية خاصة للتعليم والطلبة وكان يقول دائما إنهم رجال الغد لجزائر الاستقلال، وفي سنة 1957م أذن لمصلحة الأوقاف التابعة للولاية الثالثة بإرسال الطلبة لمواصلة الدراسة في تونس الشقيقة²⁶ فتوجهوا إليها قافلة بعد أخرى مع عدد من الشيوخ والمعلمين أمثال الطاهر آيت علجت، والشيخ محمد الصالح الصديق، والشيخ محمد الصالح وشام وآخرين²⁷.

وكانت طرق العبور هي الممرات التي استعملها جيش التحرير مشيا على الأقدام، مع العلم أن هذه الطرق كانت محفوفة بالمخاطر مما أدى إلى استشهاد عدد كبير من الطلبة والمجاهدين²⁸. وعندما وصل الطلبة والتلاميذ إلى تونس والتحق العقيد عميروش بهم سلم له أحد الجزائريين، من أتباع التيجانية (فيلا) ذات طابقين اثنين، وحديقة ومرآب فاتخذها مقرا لهؤلاء الطلبة، وخصص ميزانية للإنفاق عليهم من أموال أوقاف الولاية²⁹.

لقد قدم القائد عميروش دعما كبيرا للطلبة والتلاميذ وشجعهم على العلم و أعفاهم من المشاركة في حرب التحرير، ويذكر المؤرخ الجزائري يحي بوعزيز في هذا السياق: "وعندما طرحت عليه قضية دخول بعض الطلبة إلى الجزائر للمشاركة في الكفاح، وكنت أنا ضمنهم رفض ذلك بإصرار، وقال بأن الجزائر تحتاجكم بعد التحرير لأعمال البناء والتشييد"³⁰.

وابتداء من عام 1958م وتزامنا مع تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أصبحت جهة التحرير الوطني تشرف على التعليم وهو من إختصاص وزارة الشؤون الثقافية، ولنجاحة النظام الذي أسحدثه عميروش لطلبة ولايته قامت الثورة بتعميمه في كل الولايات وتعددت الوجهات والمناهل العلمية³¹. وقدم أحمد توفيق المدني وزير الثقافة في الحكومة الجزائرية المؤقتة في حوار أجرته معه جريدة المجاهد³² الثورية عرضا وافيا عن وضعية الطلبة الجزائريين بالخارج.

فعن الإمكانات المتاحة أمام الطلبة قال: "أنهم يتقاضون منحا من الحكومات العربية ولكنها لا تفي بحاجاتهم لذلك فإن الحكومة الجزائرية تقدم لهم معونة إضافية باستثناء طلبة الكويت لأن الإمارة تكفيهم، وكذلك الطلبة الذين يدرسون في

البلدان الأوروبية فإن أغلبهم يتمتعون بمنح كافية بدعم من حكومات تونس والمغرب³³.

أما عن وجهات هؤلاء الطلبة الذين يبلغون 1200 طالب فهم يتوزعون على كل من الجمهورية التونسية، والمغرب الأقصى، والجامعة المصرية، وجامعة بغداد، والكويت، وفرنسا، وسويسرا، ويوغسلافيا، وألمانيا الشرقية، والإتحاد السوفياتي، والولايات المتحدة، والصين الشعبية³⁴.

ويتوزع هؤلاء الطلبة على مختلف التخصصات فطلبة تونس يزاولون التعليم الزيتوني وتعليم المعهد الخلدوني، أما طلبة الشرق فأغلبهم توجهوا لدراسة الآداب والتاريخ والحقوق وفن التربية والدراسات العلمية، والطلبة الذين هم بأوروبا يتلقون العلوم العصرية التي تحتاج إليها الجزائر بعد الاستقلال³⁵.

الجدول التالي يبرز توزع الطلبة الجزائريين على بعض الجامعات بالخارج سنة 1958

الدولة	عدد الطلبة
الجمهورية التونسية	600
الجمهورية المصرية	100
جامعة دمشق	65
جامعة بغداد	65
الكويت	30
المغرب	100
الجامعات الأوروبية	170

المجموع 1200 طالب³⁶.

خاتمة:

تمكنا من خلال معالجتنا للموضوع من الوصول إلى جملة من الاستنتاجات نوجزها فيما يلي:

- 1- لم يسلم التعليم العربي في الجزائر من سياسة فرنسا الاستعمارية من خلال استهداف مؤسساته، ومحاربة اللغة العربية والدين الإسلامي بموجب قوانين جائرة بهدف طمس الهوية الوطنية والإسلامية للشخصية الجزائرية تجسيدا لمشروعها الاستعماري الصليبي.
- 2- عظملة الثورة الجزائرية في اهتمامها بتعليم الجزائريين لاسيما شريحة الأطفال رغم الظروف الاستعمارية القاهرة، وانعدام الإمكانيات المادية والبشرية.

- 3- استراتيجية الثورة الجزائرية بمنظومتها التعليمية في تأصيل شخصية الأطفال على القيم الإسلامية والعربية والوطنية والثورية، ومن ثمة انقاذ هذه الشريحة من الذوبان في شخصية المحتل وثقافته.
- 4- نجاح الثورة الجزائرية في احتضانها لشريحة الأطفال عن طريق التربية والتعليم والتكوين، وبالتالي إيجاد دور بارز لهم في الكفاح الوطني التحرري.
- 5- كللت الجهود التعليمية للثورة التحريرية بصنع جيل متعلم ومتكون ساهم في استرجاع السيادة الوطنية، وقيادة جزائر ما بعد الاستقلال.

الهوامش:

1. مصطفى زايد، التنمية الاجتماعية ونظام التعليم الرسمي في الجزائر، ص109.
2. - للاستزادة في الموضوع راجع رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، ص 97
3. - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1954-1962)، ج10، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007، ص53.
4. - أحمد طالب الإبراهيمي، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، ترجمة حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1972، ص17.
5. - مصطفى زايد، المراجع نفسه، ص106.
6. - الهادي درواز، من تراث الولاية السادسة التاريخية، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2009، ص161
7. - تم استحداث هذه المصلحة في مؤتمر الصومام 1956م، وأوكلت لها مهمة الإشراف على الشؤون الدينية والتعليمية. للاستزادة في الموضوع، راجع: عمار قليل، ملحمة الجزائر، ج1، دار البعث قسنطينة، الجزائر، 1991م، ص407.
8. - عبد العزيز وعلي، أحداث ووقائع في ثورة التحرير بالولاية الثالثة، ط2، منشورات الجزائر للكتب، 2012، ص148.
9. - عبد الحفيظ أمقران الحسني، مذكرات من مسيرة النضال والجهاد، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1997، ص45.
10. - من التقرير الجهوي للولاية الرابعة المقدم في: الملتقى الوطني الرابع لتسجيل أحداث الثورة من 1959 إلى نهاية 1962، الجزء01، ص106
11. - محمد الطيب العلوي، "التعليم في الجزائر خلال الثورة التحريرية"، جريدة السلام، العدد 1395، الجزائر 1996، ص18.
12. - صحيفة المجاهد (لسان حال جبهة التحرير الوطني)، "أطفالنا يستعدون لبناء جزائر الغد"، المجاهد، العدد، 14/06/1959.

13. - عبد العزيز وعلي، المصدر نفسه.
14. - من التقرير الجهوي للولاية الأولى (الأوراس) المقدم في: الملتقى الوطني الثالث لتسجيل أحداث الثورة من 20 أوت 1956 إلى 1958/12/13 المنعقد بـتيزي وزو 1985/08/07م، ص 106.
15. - بسام العسيلي، المجاهدون الجزائريون، ط 1، دار النفائس، بيروت، 1954، ص 134.
16. - محمد الطيب العلوي، المقال نفسه، ص 18.
17. - صحيفة المجاهد، نفس المقال السابق.
18. - صحيفة ثورية، لسان حال جبهة التحرير الوطني، صدرت باللسانين العربي و الفرنسي ابتداء من سنة 1956، تعتبر من أهم وسائل الاعلام الثوري التي جابهت بها الثورة دعايات العدو و أكاذيبه الباطلة، كما لعبت دورا بارزا في التعبئة و حشد الدعم الشعبي للثورة، للمزيد من الاطلاع حول ظروف تأسيس هذه الصحيفة و تطورها و اهتماماتها، أنظر: زهير احداث، الصحافة المكتوبة في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، (دون تاريخ)، ص ص 111-116.
19. - صحيفة المجاهد، نفس المقال السابق.
20. - ونذكر هنا على سبيل المثال أوامر قائد الولاية الرابعة سي أحمد بوقرة
21. - محمد صايكي، مذكرات النقيب محمد صايكي، شهادة ثائر من قلب المعركة، تحرير محمد اليزيدي، ط 02، شركة دار الامة، الجزائر، 2003، ص 153.
22. - محمد الطيب العلوي، "التربية بين الأصالة و التغريب"، جريدة السلام، العدد 1398، الجزائر، 1996/06/05.
23. - أمد بن ابراهيم، "لقاء مع مجاهد"، مجلة أول نوفمبر، العدد 69، الجزائر، 1984.
24. - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 281.
25. - حيث عرف عنه حبه للثقافة وتكبير العلماء والطلبة ورجال العلم والفكر وإحترامهم.
26. - عبد العزيز وعلي، المصدر نفسه، ص 146.
27. - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 281.
28. - من التقرير الجهوي للولاية الثالثة المقدم في: الملتقى الوطني الثالث لتسجيل أحداث الثورة بـتيزي وزو 1985، ص 106.
29. - يحي بوعزيز، نفسه، ص 282.
30. - نفسه، ص 282.
31. - نفسه.

32. - أحمد توفيق المدني، "وضعية الطلبة الجزائريين في الخارج"، صحيفة المجاهد، العدد 33، (1958/12/08)
33. - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 265.
34. - صحيفة المجاهد، (1958/12/08)
35. - المصدر نفسه.
36. - نفسه.